

السيرة في النشر القديم ومعالم استعمال الجنس الأدبي من خلال سيرة ابن طولون للبُلُوي

بقلم صالح بن رمضان

سيرة أحمد بن طولون (ت 270 هـ) مصنف ثري ألفه أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة⁽¹⁾ وذكر في مقدمته أنه ليس أول من دون سيرة ابن طولون بل إن أحمد بن يوسف بن الداية⁽²⁾ قد سبقه إلى الكتابة في هذا الموضوع، لكنه يزعم أن أحمد بن يوسف لم يكن وفيًا لأصول التأليف في هذا الفن ولقواعده، بل إنه لم يبلغ به مرحلة النضج والاكتمال. ويذهب البلوي كذلك إلى أنه يستدرك بكتابه هذا ما فات صاحب المصنف الأول من الأخبار المتصلة بابن طولون.

(1) من قبيلة بلي القضاية، ومن الشيعة الإسماعيلية عاش في مصر في النصف الأول من القرن الرابع، راجع ترجمته في فهرست ابن النديم ولسان الميزان لابن حجر. وهي ترجمة مقتضبة فلا ذكر لتاريخ ولادته ولا لوفاته، ولا حديث عن صلته بآل طولون. وقد بحثنا عنه في سائر كتب التراجم فلم نعثر على عناصر تضيف شيئاً يذكر إلى ما جاء في الفهرست.

(2) من معاصري أحمد بن طولون عاش في مصر وتوفي بها سنة 394 هـ. راجع ترجمته في معجم الأدباء، لياقوت، ط دار المشرق، بيروت د.ت 5 / 154 - 160.

ولئن كان هذا الأسلوب في تصدير الكتب سنة من سنن الكتابة القديمة عامة⁽³⁾ فإنّ المتمعّن في سيرة أحمد بن طولون كما كتبها البلوي يلاحظ أن المقدمة تعلن فعلا عن اكتمال الوعي بمقومات هذا الجنس الأدبي.

إنّ هذا الأثر الأدبي يتبوأ من تاريخ أدب السيرة منزلة وسطى : فقد سبق البلوي إلى هذا اللون من الكتابة عدد كبير من النّائرين أقدمهم أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت 214 هـ) صاحب كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز. وأشهرهم ابن هشام (ت 218 هـ). وقد أخذ أصول السيرة عن ابن إسحاق (153 هـ) فمثلت كتابته مرحلة استقلال السيرة وانفصالها عن الأجناس السردية التاريخية القريبة منها كالمغازي والتراجم والطبقات. وواصل الكتاب القدامي التّأليف في هذا الجنس الأدبي فكان كتاب المحاسن اليوسفية : سيرة صلاح الدين الأيوبي للقاضي بهاء الدين بن شداد الأثر المتوّج لتاريخ السيرة الأدبية القديمة.

إنّ تلك المقدمة النقدية التي ألعنا إليها وهذه المنزلة الوسطى التي تحتلها هذه السيرة أمران يحملاننا على الاهتمام بهذا الأثر، ذلك لأنّ الآثار التي تتبوأ المنزلة الوسطى من تاريخ الجنس الأدبي هي عادة الآثار الممثلة لمراحل اكتماله ونضج مفاهيمه ومقوماته.

ونعرض في هذا البحث أهم النتائج التي انتهينا إليها في تحليلنا لمقومات السيرة الأدبية عند البلوي، وهي نتائج لا تتصل بمقومات الكتابة النثرية عامة، بل تخص مسالك البحث في البلاغة الكتابية. وربما أسهمت في إثارة القضايا المتصلة بالحدود الفاصلة بين البلاغة الشفوية والبلاغة الكتابية. وهي حقل من حقول البحث لا يزال يكتنفه الغموض، ولم يتخلص بعد من أساليب البحث الاختياري الإنطباعي.

(3) انظر مثلاً مقدمة البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديشي، مكتبة العاني، بغداد 1967، فهو يقول : «ذكرت وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذي سمّاه البيان والتبيين، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً متحلّة، ولم يأت فيه بوصف البيان (...) وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه، ص 51

1 - الوعي بمقاصد السيرة في نقد البلوي لابن الداية :

صدر البلوي مقدمة كتابه بنقد كتاب أحمد بن يوسف الموسوم كذلك بسيرة ابن طولون⁽⁴⁾ تمهيدا لتبرير إعادة الكتابة في نفس الموضوع. ويتضح في هذا النقد أن البلوي كان على وعي بالفرق بين مقاصد السيرة ومقاصد سائر الأجناس المتاخمة لها يقول : « كان يخلط أخباره فيأتي بقصة من قصصه التي تدل على ذكاء عقله وفننته ولطيف حسه، ثم يأتي بضدها (...) ولم يأت بجميع أخباره ولا أخبار أبي الجيش ابنه وما كان من جميل أفعاله، وحسن آثاره. »⁽⁵⁾

ويذهب البلوي بهذا النقد إلى أن أحمد بن يوسف قد أخلّ بأحد المقاصد الأساسية لجنس السيرة وهو المقصد التمجيدي. فهو لم ينتخب المادة التاريخية والمواقف والأحداث والمشاهد الدالة على المناقب والمآثر دون المثالب والعيوب بل خلط هذه بتلك فكان أقرب إلى التأليف في أدب التراجم والأخبار منه إلى بناء سيرة أدبية مؤسسة على التمجيد وتخيلد المآثر والبطولات.

2 - نقد البلوي للصبغة الشفوية في كتابة ابن الداية.

يعيب البلوي على ابن الداية اضطراب نسق كتابته وتداخل أغراضها فيقول : « قرأت كتاب أحمد بن يوسف في ذلك، فلم يكن موقعه منك الغرض الذي إليه ذهبت، ولا المعنى الذي إليه نحوت، وأنك تريد ما هو أكبر منه شرحا وأكمل وصفا، وأن أحمد بن يوسف كان يمرّ في شرح قصة ثم يرجع إلى ما قبلها، »⁽⁶⁾. ويعد البلوي قارئ الكتاب بمشروع

(4) لم يصل إلينا هذا الكتاب، ويمكن أن نطلع على أسلوب ابن الداية في تدوين أخبار الطولونيين في كتابه الموسوم بالكفاة وحسن العقبى، فقد خصّص قسما منه لمآثر آل طولون، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة الاستقامة القاهرة 1941.

(5) سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة الترقّي، دمشق 1939.

ص 30، 31

(6) م.ن ص 30

كتابي يتجاوز به سيرة ابن طولون لابن الداية بنية ومضمونا ،وقلت ما هكذا أرخّ الناس الأخبار، ولا عليه نظم العلماء الآثار. وأردت أن يكون ذلك مستقصى جميعه، وعلى ترتيب في شرحه، ولا يذكر آخر قبل أول، ولا يقدم سالف على آنف، وقد امتثلت أمرك فيما أردت، وسلكت فيه الذي اخترت، (7).

3 - السيرة من التاريخ العام إلى تاريخ الشخصية :

ينطلق البلوي في تدوين سيرة ابن طولون من الأحداث التاريخية العامة أي الأحداث التي تشترك مختلف الأجناس السردية في تدوينها وفي كتابة مفاصلها الكبرى. إلا أنه سرعان ما يولّد من هذا التاريخ أول حدث في تاريخ شخصية صاحب السيرة. ويتم الانتقال من التاريخ العام إلى تاريخ الشخصية باستخدام ما يمكن أن نسميه بالوظائف التمجيدية.

يقول : « فلما تمت البيعة للمعتز وخلع المستعين أنفذ إليه أهله وولده فكتبت قبيحة أم المعتز إلى أحمد بن طولون : « إذا قرأت كتابي فجنني برأس المستعين وقد قلدتك واسط». فلما وصل الكتاب إليه اغتم غمّا عظيما وكتب إليها يقول واللّه لا يراني الله عزّ وجلّ أقتل خليفة له في رقبتي بيعة وإيمان مغلظة أبدأ، فلما ورد كتابه بذلك زاد في قلوب الأتراك محلاً كبيراً، (8).

إنّ الأحداث التاريخية التي يهملها التاريخ العام أو تذكر في سياقه باعتبارها أحداثاً جزئية عرضية، تتحول في خطاب السيرة إلى أحداث محورية وإلى وظائف سردية يتوقف عندها الكاتب، ويعيد إنشائها في مقاطع سردية تامة، بل ينسج منها حبكة سردية لا وجود لها في سياق التاريخ العام (MISE EN INTRIGUE)

(7) م.ن.ص 31.

(8) م.ن.ص 40.

وإنّ هذا العدول عن التاريخ العامّ إلى كتابة الشخصية يتمثّل في هذا الجنس الأدبيّ الذي نحن بصده أولى علامات الولوج بخطاب السيرة إلى مجال الكتابة الأدبية. وهو مجال لا يكثر بالرجع التاريخي بقدر ما يحتفل بالتعبير عن التخيل الجماعي. وفعلًا فإنّ شخصية صاحب السيرة شخصية بطولية قادرة على استيعاب الرموز الثقافية، وعلى التعبير عن المثل المترسبة في اللاوعي الجماعي لأنّ منزلتها من التاريخ العام ثابتة في الذاكرة الجماعية قبل أن تتحول إلى شخصية قصصية.

وإننا لا نستطيع أن نفهم كيف يكتب مؤلف السيرة قصة بطلها مغمور، أو يدوّن تاريخ شخصية ليس له منها موقف مسبق على نحو ما يقول شوقي المعاملي إذ يقول : «أما مترجم غيره فإنه يقف مواقف الشاهد وينبغي له أن يكون موضوعيا. يجمع الحقائق ويحكم عليها. وليس له أن يحمل فكرة مسبقة عمّن يترجم له. وإنّما من واجبه أن ينقل صورته إلى الخلف كما كانت تلك الصورة معروفة عند معاصريه»⁽⁹⁾.

إنّ هذا المذهب في تصوّر صلة كاتب السيرة ببطلها لا يراعي الفرق بين خصائص التلفظ التاريخي وخصائص اللفظ في الأجناس السردية المشاكلة للتاريخ. وهو مذهب ينطوي - في تقديرنا - على خلط منهجي بين ثلاثة مقامات مختلفة أو ثلاثة أجناس من الكتابة متباينة. وهي مقامات أو أجناس يحسن أن نميّز بينها لنفهم منزلة السيرة منها :

فالمقام الأول هو مقام الكتابة التاريخية، وهي الجنس الأصلي الذي تولدت منه السيرة أو استمدت منه بعض مقوماتها الأجناسية، فهي كما بيّنا آنفا سليلة كتابة الطبقات والمغازي. ويمكن أن نطبق رأي شوقي المعاملي على هذا الجنس من الكتابة بشيء من الإحتراز. أما ثاني المقامات فهو أدب التراجم كما نعرفه في مصنفات من قبيل أخبار الأغاني للأصفهاني ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان.

(9) السيرة الذاتية في التراث، مكتبة النهضة المصرية، الجاهرة 1988، ص 15.

وهو مقام تنزع فيه الكتابة إلى التخلص من مقتضيات التاريخ العام، وتهتم فيه بتاريخ الشخصية الفردية. غير أن تسريد الأخبار (Narrativisation) وإن كان في غاية التعقد والكثافة لا يحو ما بين الوحدات السردية من حدود، ولا يحولها إلى قصة واحدة. وأمّا ثالث المقامات فهو مقام السيرة الأدبية. وقد استعمل المعاملي عبارة «مترجم غيره» في سياق الحديث عن كتابة السيرة الأدبية فدلّت عبارته هذه على أن تصنيفه للأجناس السردية التاريخية لا يخلو من خلط بين أداب التراجم وأدب السير. وإننا نذهب إلى أن هذا اللون من الكتابة يختلف عن الكتابة التاريخية وعن فن التراجم بمتانة الصلة بين كاتبه وبطله، وذلك بعكس ما يذهب إليه شوقي المعاملي تماما. ونسوق شاهدا على ما نذهب إليه قول بهاء الدين بن شداد في حديثه عن موكب دفن صلاح الدين الأيوبي :

«وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بأنفسهم، وما سمعت هذا الحديث إلّا على ضرب من التجوّر والترخّص إلّا في ذلك اليوم فإنّي علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس»⁽¹⁰⁾.

إننا نرى بوضوح أن كاتب السيرة ليس مجرد ناقل للأحداث والوقائع بل إنه صاحب مشروع كتابي، لا يخفي فيه تعاطفه مع شخصية صاحب السيرة. وهو يحرص في هذا المشروع على جمع العناصر الخاصة بالبطل بعد أن كانت متفرقة مبثوثة في كتب التاريخ والأدب والأخبار. وهو يحرص كذلك على ترتيبها في مضمّار واحد، وصياغتها في قصة بطولية مترابطة الفصول، تفسّر أحداثها ومشاهدها حياة بطلها وأخلاقه وميوله، وتفصّل القول فيما ذكره التاريخ العام ذكرا مجملا وهي كما يقول إحسان عباس «تجعل من الفرد الحقيقة الوحيدة الكبرى»⁽¹¹⁾. بل إن من خصائص التلفّظ بالأحداث التاريخية والواقعية

(10) المحاسن اليوسفية، سيرة السلطان صلاح الدين، ط مصر د - ت، ص 250.

(11) فنّ السيرة، ط دار صادر ودار الشروق عمّان 1996، ص 11.

في خطاب السيرة السعي الدائب إلى تبرير الأعمال التي أتاها صاحب السيرة وبدأت في السياق التاريخي غامضة الأسباب. ولربما عدّها القراء من المثالب والعيوب. فقد صرّح البلوي في سيرة ابن طولون بأن هذا الأمير الذي استطاع أن يقيم بمصر أسس دولة مستقلة عن العباسيين كان في مخيلة معاصريه ومن جاء بعدهم رجلاً غليظاً غشوماً. وذكر صاحب السيرة أنه يعمل من خلال الأخبار التي جمعها على تغيير هذه الصورة أو تعديلها يقول في تبرير قسوته على أحد أعوانه من خرج عليه : «وكتب سيما الطويل وكان بأنطاكية على جهة العصيان يدعوه إلى طاعة السلطان والسلم، ويقول في كتابه : «لست أسومك شيئا غير إقامتك الدعوة، وانصرف عنك، ويكون البلد لك تديره كما ترى، فامتنع سيما من ذلك ولجّ فيه (...) فسار إليه أحمد بن طولون، وعأوده المكتبة ولطف به (...) فأقام على رأيه، وهذا الفعل منه على ما كان بينه وبين أحمد طولون من المحبة والمصادقة والموافقة (...) فركب إليه أحمد بن طولون ليخطبته بنفسه (...) ولاطفه بكلّ لطف وكل حيلة (...) وكان آخر قول سيما : «امض واعمل ما شئت (...) وأخطأ سيما الطويل في هذا القول لأنّ أحمد بن طولون كان من طبعه أنّ من لاينه واستسلم إليه رأى منه كلّ ما يحبه، وبلغ كلّ ما يريده ومن خاشنه وقاومه لم يطقه وكافأه بما يستحق⁽¹²⁾

إنّ دافع التبرير في كتابة السيرة من الدوافع التي تدل على أن هذا الجنس الأدبي ينافس الكتابة التاريخية ويعارضها أحيانا، وذلك بما يخطئه من مسالك على هامش هذه الكتابة، مسالك يُعاد من خلالها النظر في الأمور التي تستقر في الذاكرة، وتكوّن المعتقدات المتصلة بالعظماء من الاعلام.

وقد كان لهذا الدافع أثر عميق في اختيار البلوي لمادة السيرة، وفي تنظيم أخبارها وفصولها، وكان هذا الكاتب شديد الحرص على إقناع

(12) سيرة أحمد بن طولون ص 94 وراجع كذلك مقدمة كرد على لهذا الكتاب، ص 8 فقد

تحدث عن دوافع التبرير في كتابة السيرة.

القاريء بأن صورة ابن طولون التي يتناولها الناس، وهي صورة الأمير الغادر بأعوانه، المصادر لأموالهم، ليست سوى باطل يروّجه أعداؤه. فقد كان البلوي يروي الأخبار التي تضع أعوان ابن طولون موضع التهمة، وتظهرهم بمظهر الأعوان المفسدين، يقول، : «ومن إنصافه وحسن تأتية وبطلان كثير ممّا يشنع به عليه، وإقامته له العذر فيما يأتيه أن وكيلا له يعرف بابن مفضل صحبه ولاشيء له ففوّض أمره كلّ إليه، فاستولى عليه (...) فكبرت مرافق ابن مفضل واتسعت أحواله (...) فدخل ابن نفيس إلى أحمد ابن طولون فعرفه الخبر فأحضر ابن مفضل فقال له : ويحك احلف بالله ثم برأسي أنك ما تملك ذلك فحلف، فدعا سوارا الخادم وكان صفيق الوجه قاسي القلب فقال له : امضي الساعة واقبض على ماله (...) فمضى سوار وقبض على كلّ ما وجده له في العين ثمانين ألف دينار... (13).

إن رغبة البلوي في تغيير ما يروّج من أخبار فيها ثلب لابن طولون هي التي حدت به إلى التوسع في تصوير الشخصية وبناء مختلف جوانبها فقد أطنب في الحديث عن حياتها الخاصة وما تفيض به من سموّ خلقي «يظهر في طرائق تأديب أولاده (14) وفي بساطة عيشه وتعففه وتعاليه على مختلف مظاهر الحياة المادية (15)». كما دوّن البلوي الأخبار المتصلة بذوقه وثقافته وميوله (16). وتطرق في قصص كثيرة إلى صلاته بعامة الناس من الفقراء وأبناء السبيل وإلى عطفه عليهم.

ولعلّ هذه الرغبة في منافسة الكتابة التاريخية ومعارضتها هي التي كانت وراء تبلور الشخصية النمطية في سيرة ابن طولون : فقد كان تأثر البلوي ببعض المواضيع الأدبية الرائجة في كتب الأخبار والنوادر واضحا

(13) سيرة ابن طولون ص ص 140 - 142.

(14) انظر مثلا تأديبه لابنه العباس ص 213.

(15) م.ن. ص 212.

(16) م.ن. ص 348.

في بناء الصورة النموذجية لشخصية ابن طولون. ونذكر من هذه المواضيع علاقة السياسي بالجنون. فقد اشترك الأخباريون وكتاب الأدب في صياغة هذه العلاقة وفي شحنها بالرموز السياسية والثقافية المختلفة⁽¹⁷⁾ وقد جاءت صياغة هذا الموضوع في سيرة ابن طولون شكلا من أشكال التفاعل بين أدب السيرة الغيرية وأدب النوادر.

لقد عمل المؤلف على إعلاء هذه الشخصية إعلاء فنيا حتى غدت أنموذجا للسياسي الحكيم العليم، ورمزا لرجل الحكم الذي يهدف السمع للشخصية الهامشية، ولا يخفي ضعفه إزاءها بل ويصبر على ما صدر عنها من خارج الأقوال : «حدث نسيم الخادم قال : «بينما نحن ليلة وقد نمنا إلا وبه (يعني ابن طولون) قائم على رؤوسنا (...) فقال لنا ما سمعتم هذا الصباح ؟ وتأملنا فإذا صوت عال يقول : «يا أحمد بن طولون يا أخا عاد، فقال للغلمان : «اركبوا واطلبوا هذا الصوت (...) فقصده فوجدوه، فقبضوا عليه (...) فأتوا به وعرفوه أنه أبو نصر المجنون (...) وقال : «يا أبا نصر ما حملك على أن خاطبتنا بمثل هذا الخطاب؟، فقال له : «لأنك تعظمت وتكبرت ونسيت خلقك من تراب، ثم من نطفة» (...) فبكى أحمد بن طولون بكاء كثيرا. وكان يتعاهده في كل وقت بالطعام والكسوة والبر»⁽¹⁸⁾.

إن استماع البطل إلى عتاب المجنون هو الوظيفة السردية المحققة للغرض التمجيدي، فهي تظهره في صورة واقعية أبعد إيهاما بمشاكلة الخبر للحقيقة التاريخية.

غير أن كتابة السيرة بمقاصدها التمجيدية ودوافعها التبريرية لم تصمد إزاء الحقائق التاريخية الثابتة ولم يستطع البلوي أن يفصم صلة أحمد

(17) من هذه الأخبار قصة مجنون بني عجل والحجاج بن يوسف وقد جاءت في روايات مختلفة، وقصة بهلول وموسى بن المهدي، انظر مثلا ابن الجوزي : كتاب الأذكياء ط دار الجيل، بيروت 1988، ص 206، والحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ط دار إحياء الكتب العربية، مصر 1953، ص 164.

(18) السيرة ص ص 203 - 205.

بن طولون بالأحداث التي تخدش صورته، بل جاءت كتابته في السيرة أنموذجا دالاً على أن هذا الجنس الأدبي لا يمكن أن ينفصل فيه الفرد عن مجتمعه كما يرى إحسان عباس⁽¹⁹⁾. وفي هذا السياق يقول محمد كرد علي في مقدمة سيرة ابن طولون : «أكثر البلوي الاعتذار عن ابن طولون في كلّ ما صدر عنه من شدة. وما استطاع في بعض الأخبار النابية عن حدّ العقل أن يذيلها برأيه فسارع في روايتها لئلا يسأله سائل عن رأيه فيها⁽²⁰⁾».

في مقدمة هذه السيرة عاب البلوي على أحمد بن يوسف ابن الداية خلطه مناقب ابن طولون بمثالبه. ولئن لم يسلم هو نفسه من هذه الظاهرة التي أخذ بها سلفه فإنه كان واعياً بأحد المقومات المؤسسة لجنس السيرة : وهو التزامها بالواقع التاريخي، واجتنابها الوقوع في دائرة الأدب العجائبي، وفي سذاجة التمجيد المطلق الذي يرتفع بالبطل إلى مراتب مثالية لا يصدقها القارئ، وتجاوز أفق انتظاره. فبقدر ما كان أبو محمد البلوي حريصاً على الإعلاء من شأن شخصية أحمد بن طولون، وتضخيم صورته، وإظهاره نموذجا لرجل الدولة القادر على الاستقلال بالحكم في القرن الثالث للهجرة، كان حريصاً على مسايرة جانب من الذاكرة الثقافية أو السياق التاريخي الذي يزاحمه أدب السيرة.

وكان حريصاً على ألا تفقد السيرة مصداقيتها التاريخية فتفقد صلتها بالقارئ، وتتحول إلى جنس متخيل يكتب لقارئ آخر⁽²¹⁾.

(19) راجع رايه هذا في فن السيرة، ط دار صادر ودار الشرق عمان 1996، ص 11 فهو يذهب إلى أن السيرة الغيرية يمكن أن تنقطع صلتها بالتاريخ وأن تصبح جنساً من أجناس الحكيم الخيالي.

(20) سيرة ابن طولون ص 8، وانظر في خصوص مثالب ابن طولون ص 315، 316.

(21) لا نعني بالقارئ الشخص المادي والاجتماعي وإنما نعني به وضعية القراءة أو مرتبة التقبل ونوعه : فقارئ الجنس الأدبي التاريخي يستخدم آلات للفهم والتحليل والتلقي تختلف عما يستعمله قارئ الجنس الأدبي المتخيل، فهو جزء من وضعية الكتابة والتخاطب داخل حدود ذلك الجنس.

وقد كان الكاتب واعيا بأن ذكر بعض الأخطاء باعتبارها جزءا من إنسانية البطل تحقق هذا المقصد. وهي أخطاء تتضاءل قيمتها وتخف موازينها بإزاء ما تحفل به الأخبار من جميل المآثر وعظيم المناقب.

إن التفاعل بين الرغبة في إنشاء عالم متخيل والحرص على مراعاة مقتضيات الكتابة التاريخية والذاكرة الثقافية هو الذي أنتج، في تقديرنا، السمات الأساسية لبنية السيرة عند البلوي، وهي سمات واضحة معالمها في بنية الكتاب، عامة، وفي مختلف فصوله فصلا فصلا.

4 - مقومات البنية في سيرة البلوي :

أ - تحويل الخبر التاريخي إلى وظيفة سردية :

يعتمد البلوي في سيرة ابن طولون الخبر التاريخي وحدة نصية أساسية تجمع من حيث علاقتها بالسياق العام بين الانغلاق والانفتاح. فالخبر التاريخي في السيرة منفتح على السياق لأن كل وحدة خبرية إنما تروي وفق نسق خطي متتابع العناصر متصاعد من حيث الخط الزمني، فتتقدم بالقصة شوطا جديدا وتحمل من العناصر المقابلة ما يدل على أنها جزء من حكاية كبرى تكتنفها : «وحدث أبو كامل شجاع بن أسلم الحاجب قال : لما أطلقني أحمد بن طولون الزماني دار الصناعة...» (22).

فهذا الخبر متصل بخبر آخر سابق له، فيه حديث عن سجن شجاع بن أسلم وأسبابه. وربما استغنى الراوي عن ذكر بعض المواد التي سبق ذكرها في السيرة كالتعريف بالأعلام والشخصيات المحيطة بالبطل.

ويكون الخبر التاريخي من جهة أخرى وحدة منغلقة لأنه يصدر بذكر الإسناد فيذكرنا في كل مرة بأن البعد التاريخي لم تمح آثاره من هذا الجنس الأدبي. ولأنه يتضمن حكاية مكثفية بذاتها من حيث البنية والدلالة.

(22) السيرة ص 208.

إنّ انتظام الأخبار في خطاب السيرة كما جاءت في نص البلوي مظهر من مظاهر نضج البلاغة في هذا الجنس الأدبي. ذلك أن الكاتب يدوّن الأخبار وفق خطة عقدها قبل تأليف الكتاب، أي وفق مشروع كتابي استهله بكتابة مراحل النشأة والتربية : «نشأ أحمد بن طولون نشوءاً جميلاً غير نشوء أولاد العجم (...)» وخرج إلى طرسوس مرات ولقي شيوخ المحدثين وسمع منهم (...) وألف بطرسوس جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فأدبوه بأدبهم ...» (23).

ثم تدرّج في تدوين الأخبار فعرضها مرتبة على نحو يبرز نمو شخصية ابن طولون عبر الزمن واتساع إشعاعها السياسي والاجتماعي. وقد كانت وظيفة الغزو والنجدة أهم الوظائف السردية التي استخدمها البلوي ليخلص شخصية ابن طولون من مرحلة الخدمة خدمة الخلافة ويرتقي بها إلى مرحلة السيادة والبروز، ويحولها إلى شخصية بطولية تتميز من نظرائها في جند الخلافة. فقد روى خبر عودة رسل المستعين بالله العباسي من بلاد الروم محملين بهدايا من ملكهم إلى الخليفة، وكان هجوم الأعراب على القافلة السياق الذي خرج به البلوي من كتابة الخبر إلى كتابة السيرة : فقد كان ابن طولون في المقاطع الأولى من الخبر شخصية مغمورة لا فرق بينها وبين عامة جند الخلافة. وإذا به يتصدى لاسترداد هذه الهدايا وافتكاكها من الأعراب، فيهيمن بذلك على الخبر، ويصبح شخصية بطولية.

وقد وُلد البلوي من إعجاب المستعين بعمل ابن طولون الأحداث الممهدة لمجده السياسي : «ومن رسم الغزاة أن يسيروا متفرقين مثل العقبان فنظرت الأعراب شيئاً من سوادهم في بعض المواضع فأخذوه، ووقعت الصيحة (...) فكان أول من انتدب وحضّ على القتال (...)» فلمّا رآه الباقيون اتبعوه فكان أول من لحق بالأعراب ووضع فيهم السيف (...) وكان حسن الرمي لا يخطئ شيئاً، فخلّى الأعراب جميع

(23) السيرة ص 34، 35.

ما أخذوه، ونجوا بأنفسهم على خيولهم (...) فازداد به المستعين سرورا، (24).

إنّ هذا الفصل السردي فرصة اغتتمها البلوي لتكثيف أسلوب الوصف، ولإدراج العناصر المكونة لأهم جانب من جوانب صورة البطل الشجاع في القسم الأول من السيرة.

ب - وظائف الإسناد :

لم يتخلّ البلوي، وهو يحوّل الخبر التاريخي إلى مقطع من مقاطع السيرة عن الإسناد باعتباره عنصرا من العناصر المكوّنة لبنية الخبر. ولئن أهمل الكاتب هذا العنصر في بعض السياقات فإنّ ذلك لا يمثل سوى نسبة ضعيفة من المادة الخبرية (25). أمّا عامّة الأخبار فهي مسندة إلى روايتها وهم نوعان : رواة يذكّرون البلوي باعتبارهم شهداء على ابن طولون عرفوه وعاصروه وكان بعضهم أعوانا له خدما ووزراء وكتّابا. ورواة نقلوا الأخبار على النحو المعروف في كتب النقول والأخبار. دون أن تكون لهم بابن طولون صلة تذكر.

إنّ استخدام البلوي لرجال ابن طولون أسانيد في رواية الأخبار على هذا النحو اختيار فني يحقق مشاكلة السيرة للواقع ويوهم القارئ بأنّ مضمون الخبر ممكن الوقوع (26). فقد اضطلع بهذا الدور ابن عبد كان وهو رئيس ديوان الرسائل وأبرز كتاب العصر الطولوني فجاءت بعض أخباره شكلا من أشكال التغني بخصاله السياسية، وحسن تدبيره لشؤون

(24) السيرة ص 37، 38.

(25) أهمل البلوي أحد عشر إسنادا من جملة تسعين خبرا وقد اقتبس نحو خمسين خبرا من أخبار ابن الداية وزاد عليها نحو أربعين مّا جمعه، انظر تحليل هذه المصادر في مقدمة محمد كرد علي، ص 10.

(26) راجع محمد القاضي : الخبر في الأدب العربي، ط دار الغرب الإسلامي ومنشورات كلية الآداب - تونس 1998، ص 326.

المراسلة السياسية، وحدث ابن عبد كان قال : «كنا ننشئ الكتب إلى السلطان وغيره من أصحاب أعماله، فيرد في الأجوبة غير ما صدرت به الكتب إليهم، فذكرت له ذلك فضحك وقال : «هذه أجوبة عن أشياء أضمنها أن الكتب لا أطلعكم عليها» (27).

وجاءت أخبار أخرى للإشادة ببلاغته وحذقه كتابة المراسلات الديوانية : «ومما رواه أبو جعفر بن عبد كان أنه ورد عليه كتاب ممتلك الروم يسأله الهدنة فأجابه إلى ذلك وقال له ...، ثم يسوق البلوي نصّ الرسالة برواية ابن عبد كان ويعلق قائلا : «قال ابن عبد كان وكان مضطلعا بالكتابة فوالله العظيم ما حضرني لهذا الكتاب أحسن من معاني ألفاظه كلّها فلم أتجاوزها، وأنفذ الكتاب وعمل به» (28).

واضطلع بدور الرواية ولادة شرطته (29) وخاصة قواده (30) إلا أن اللافت للإنتباه في هذه الأسانيد إنما هو كثرة اعتماد البلوي أحد خدم ابن طولون اسمه نسيم. فقد أورد أحد عشر خبرا رواها هذا الخادم (31). ولعلّ التنصيص على هذا السند يؤكد وظيفة مشاكلة الخبر للواقع.

إنّ وظيفة مشاكلة الخبر للواقع في أدب السيرة وظيفة أساسية، لم تتضاءل قيمتها في القرن الرابع للهجرة كما حدث لسائر أجناس الخبر الأدبي (32) ذلك أن أخبار السيرة الأدبية ليست مادة تاريخية أو أدبية قديمة تناقلها الرواة واستقرت في كتب النقول والأدب ففقدت فيها الأسانيد وظيفه الإيهام بالواقع. وإنما هي أخبار طارفة تحتاج إلى الأسانيد المصدقة لما جاء فيها من الأحداث والمواقف والأقوال : فرواة الأخبار في

(27) السيرة ص 112.

(28) م.ن. ص 110.

(29) انظر، ص 218.

(30) انظر ص 230.

(31) انظر مثلا : 111، 194، 203، 204، 222.

(32) راجع القاضي ص 327.

أدب السيرة يشتركون في نحت صورة بطلها، وتكوين ملامحها. ويسعى الكاتب بفضلهم إلى إقناع القارئ بأن هذه الصورة باقية في الذاكرة الجماعية، وبأن هذه الأسانيد شهادة جماعية على مشاكلة الكتابة للواقع.

لقد حرص البلوي على إثبات صلة الأخبار بالواقع، وذلك بوجه خاص في السياقات التي تتضمن أقوالاً منسوبة إلى أحد الزهاد لفظاً ومعنى، وهي أقوال بليغة، مصنوعة، يشك القارئ في قدرة الرواية الشفوية على حفظها وتناقلتها، بل يشك في كونها من المحاورات الشفوية. فقد ساق في معرض حديثه عن زهد ابن طولون وورعه أقوالاً حكمية وعظ بها أحد أصحابه في مجلس خاص، فقال فيما قال: «يا أخي ما الذي أنكرته من ربك حتى شردت عنه، وأنت مع تباعدك عنه لا تخرج من قبضته؟! وإعلم أن جدّه يمحّص هزلك، وطاعته تزيل احترامك، ولا تستكثر من الدنيا ما لا يخفّ معك حمله... وأحمد بن طولون يبكي (...). فقليل لأبي العباس: كيف حفظت هذا الكلام؟ فقال: كان الغلام الذي كان مع أحمد بن طولون هو الذي كان كاتب السرّ، يكتب كلّ ما يجري من أحمد بن طولون مع من يخاطبه، وما يجري من مخاطبه له، ولا يسقط من ذلك شيئاً (...). فكتب الغلام جميع ذلك على الرسم. فلما انصرفت مشيئاً له إلى مضربه سألته أن يأمر الغلام أن يطلق لي نسخة فأمره بذلك فنسخته» (33).

إن إسناد الأخبار إلى أعوان أحمد بن طولون وخاصة بطانته خطة من خطط الكتابة تمكّن المؤلف، وهو الراوي الأكبر في النصّ، من الدخول بنا إلى عالم الشخصية الداخلي، ومن محاورتها والكشف عن بواطنها وأسرارها. وتمكّننا كذلك من فهم منطق الأحداث والمواقف التي لا يقوى على تفسيرها وتبريرها سوى أولئك الأشخاص المقربين منها.

ج - التأليف بين التنظيم الزمني والتنظيم الأغراضي :

يبدو في سيرة أحمد بن طولون أن المراوحة بين التنظيم الزمني والتنظيم الأغراضي مقوم إنشائي صائر إلى الإستقرار في سنن كتابة الأجناس السردية المشاكلة للواقع. وقد كان اتجاه البلوي إلى إبراز الأغراض التبجيديّة باعتبارها خيطاً ناظماً لأحداث السيرة اتجاهاً واضحاً في أغلب المقاطع والفصول. فقد اتّبع لا محالة نسقاً خطياً متصاعداً من حيث الزمن غير أنه لم يختف وراء الأحداث بل كان راوياً عليماً يصدر الخبر بذكر الغرض الذي ينبغي على القارئ أن يستخلصه منه : « فمن دهائه وجودة رأيه وحزمه أنه لما عمل على المبادرة إلى مصر لم يكن الرأي عنده أن يترك أطراف عمله منتشرة غير مضبوطة ولا محروسة ... »⁽³⁴⁾ ، وأمّا فراسته وصحة إزكانه^(34 مكرر) فما رواه أبو العباس المعروف بالطرسوسي صاحب خبره قال : ... نظر يوما شيخا في جملة من ينظر إليه وهو راكب سائر في جيشه ، فقال لبعض الحجاب دونك ذلك الشيخ ، فقبض عليه (...) فاعترف أنه صاحب خبر عليه للموفق»⁽³⁵⁾.

وقد كان من آثار تنظيم المادة الأدبية وفق أغراضها التمجيدية أن جنح في مواطن معدودة للاستطراد. ففي حديثه عن وفاء عمال ابن طولون وأعوانه يذكر أن أحد خدمه رفع إليه أن الحسن بن مهاجر الكاتب يدعي أنه لا يخاف الأمير ، فأحضر وسأله. يقول البلوي : « فقال له أحمد : هو ذا تسمع يا حسن ؟ (كذا) فقال قلت أيها الأمير لأنّي قد استغرقت جهدي في نصيحتك ، وقد أمنت جورك ، وليس مع هذين ما يخيفني منك فقال له صدقت ، الأمر كما وصفت » ثم يستطرد الكاتب

(34) السيرة ص 101.

(34 مكرر) ركن زكونا وأزكن إزكانا الأمر ظنّه ظلّنا فكان عنده بمنزلة اليقين ، والشئ علمه وفهمه. والزكّانة الفراسة وأن يظنّ الشخص فيصيب.

(35) م.ن. ص 122.

فيقول : «وشبيه بهذا ما روي عن عمر بن الخطاب رحمه الله أن اجتاز ببعض سكك المدينة، فرأى صبيانا يلعبون فيهم عبد الله بن الزبير فهربوا جميعا غير ابن الزبير، فقال له عمر : ما لك أنت لم تهرب كما هرب أصحابك ؟ فقال : لم آت جرما فأخافك، وما بالطريق من ضيق فأوسع لك، فأعجب عمر بقوله،» (36).

وإذا كان الاستطراد في النشر القديم ظاهرة عامة تعبر عن هاجس فكري يوجّه الكتابة ويحدّد معالمها، وهو ردّ الفرع إلى الأصل فإنه في كتابة البلوي ظاهرة ثانوية تحقق لا محالة مقصدها العامّ فيدلّ الاستطراد في الشاهد الذي ذكرنا مثلاً على أنّ أحمد بن طولون يتبع في معاملة الرعية السلف الصالح. إلا أنّ مقتضيات الإشادة بخصال الفرد وإظهار صفاته الذاتية كبج جماح الاستطراد، فحافظ الكاتب على مبدأ المراوحة المتوازنة بين التنظيم الزمني والترتيب الأغراض.

إنّ سيرة أحمد بن طولون للبلوي تمثّل في تقديرنا أبرز الآثار النثرية التي اكتملت فيها مقومات جنس السيرة وهي بالقياس إلى سائر الآثار الشبيهة بها، تمثل مرحلة تمّ فيها للنثر العربي استيعاب الأجناس السردية القديمة أي الأجناس الأصول مثل أدب المناقب وأدب المثالب والمغازي والطبقات والرجال. وتمّ للنثر في هذه المرحلة كذلك تكثيف البعد السردى في الخبر التاريخي، وذلك بتحويل سرديته التاريخية إلى سردية قصصية متعددة القيم والإحالات والرموز.

وقد جاء هذا العمل الإنشائي شكلاً من أشكال منافسة التخيل للتاريخي والرمزي للمرجعي : لقد ألف البلوي سيرة أحمد بن طولون في عصر ظهرت فيه آثار عديدة يلتبس من خلالها البعد التاريخي بالبعد الأدبي مثل أخبار القضاة لمحمد ابن خلف بن حيان (ت 306 هـ) وكتاب الأوراق لأبي بكر الصولي (ت 335 هـ) إلا أنّ صاحب سيرة ابن طولون

(36) السيرة ص 146، 147.

يسلك في كتابة تاريخ الشخصية السياسية مسلكا مختلفا عن سائر هذه الآثار المدونة لتاريخ الأعيان. ولم يكن هذا التمييز، في رأينا، ذا قيمة تاريخية توثيقية بقدر ما كان ذا قيمة رمزية فكرية : ذلك أن كتابة حياة الشخصية السياسية أو العلمية أو الأدبية في مشروع قصصي يستقصي حياتها كلها عمل إبداعي وفعل في التاريخ يكشفان عن تعلق همّة المؤلف بتعميق البعد الإنساني في كتابة النثر الأدبي القديم.

ولئن حرص أبو محمد البلوي على تخليد مآثر ابن طولون وعلى تعظيم صورته في الذاكرة الجماعية فإنه لم يسع إلى تضخيم هذه الشخصية بالعودة إلى المعاني المدحية القديمة أو بافتعال مواقف البطولة المثيرة للإعجاب والدهشة. بل إنه لم يتعال بهذه الشخصية السياسية على واقع الحياة اليومية التي يعيشها إنسان تلك العصور في شتى أحوالها ومظاهرها وشؤونها، كلاً بل إنّ سيرة أحمد بن طولون كما كتبها البلوي سيرة هادئة في حركتها وصوتها. ونعني بهذا أن بطلها لا ينجز من الأعمال ما يهدف إلى استمالة العامة وحملها على اللهج باسمه، ولم يظهر البلوي أحمد بن طولون في مواقف فرجوية تجلب الإنتباه وتبعث الدهشة في نفوس القراء. ولئن عمل الكاتب على إبراز بلاغة ابن طولون فإنه اهتم برسائله ومكاتباته، ولم يلتفت إلى جانب الخطابة الاحتفالية التي يتم بها عادة تمجيد الخطيب وإظهار آثاره في الناس وقدرته على سياسة الجماعات.

وقد جاءت هذه السيرة كذلك بسيطة في صورها، خافتة في ألوانها وأضوائها. ونعني بهذا أنها كتابة خالية من أشكال الوصف المادي المثير للدهشة، الباعث على التعجب. فقد توخى البلوي في وصف ابن طولون أساليب الكتابة التي عهدناها عند كتاب النثر المرسل كابن المقفع والجاحظ ... ولم يسخر أساليب البديع والزخرفة، رغم كونه يعيش عصر البديع. لذلك كانت كتابته وفيّة للصورة البسيطة التي يزعم أنها كانت تميز ابن طولون.

وقد جاءت هذه الصورة متناغمة مع ما بقي في الذاكرة الشفوية
والمكتوبة من صور تظهر ابن طولون عظيما في بساطته رغم ثراء
شخصيته وعمقها الإنساني.

ولعلّ هذا المنحى في كتابة السيرة الأدبية لم يكن تدوينا للماضي
وسردا لأحداث التاريخ بقدر ما كان تعبيراً فنياً عن حنين الكاتب والمجتمع
الذي يمثله إلى النموذج الذي يمثله صاحب هذه السيرة في أخلاقه وأفعاله
ومواقفه وعلاقاته بمعاصريه. وبقدر ما كان تعبيراً عن توق إنسان تلك
العصور إلى حياة اجتماعية تتجسّم فيها المثل والقيم كما تحققت في حكاية
السيرة.

صالح بن رمضان

